عنوان المداخلة: الجازية الهلالية في ثلاث روايات جزائرية: الجازية والدراويش، نوار اللوز، راس المحنة.

الرواية أكثر قدرة من الخطابات العربية الأخرى إبداعية وفكرية في التفاعل مع النص التراثي" سعيد يقطين".

الدكتور: هشام تومي
كلية الآداب واللغات
جامعة عباس لغرور-خنشلة-

ملخص:

تتغيا هذه المداخلة الوقوف على توظيف التراث الشعبي ممثلا في السيرة الهلالية من خلال شخصية الجازية التي استرعت اهتمام الروائيين الجزائريين للتعبير عن آرائهم وأفكارهم، وللمقارنة بين واقعين: الأول يمثله الزمن الماضي بكل ما يحمله من حب وتضحية ونضال لتحرير هذه الأرض الطاهرة، والثاني متقلب متغير لا يبشر بخير نظرا لاعتبارات كثيرة من بينها الابتعاد عن ما سطر إبان الثورة، حيث طفت على السطح مشاكل كثيرة ارتبطت في جلها بالفساد الذي عم الوطن بعد الاستقلال إلى يومنا هذا، أي أن هذه الروايات (موضوع الدراسة) ناقشت وضع الجزائر زمن الكتابة وكذلك في استشرافها لما سيحدث لا حقا.

لقد وجد الروائي الجزائري في التراث الشعبي خزانا ثريا لا ينضب من قيم وأفكار تشحن أدبه برمزية مثلى، معبرة عن السياق الحضاري المتقلب بمنحه الآلية التعبيرية على ذلك الواقع، ثم أن انتخابه للمادة التراثية سواء أكانت شخصيات، أو فضاء، أو أحداثا، تكون موجهة لذاك الغرض لا من أجل تقديسها أو الانغلاق ضمنها، بل بتفعيلها والانفتاح عليها ومنحها نفسا جديدا وشحنها برؤى فكرية جديدة تسهم في الانطلاق والانبعاث.

نص المداخلة:

1/ التضايف المثمر بين الأدبين الشعبي والرسمي:

لا جرم والحال هذه أن تتم الاستعارة بين ما هو رسمي وما هو شعبي، إذ أن هذا التضايف سيكسب العمل سواء كان شعبيا أو رسميا تفردا وخصوصية، وإن أردنا التحديد فإن المرجعي الشعبي بتنوع مصادره سيشكل أرضية جيدة ينطلق منها الروائي وهو يخوض لجج التجريب الفني، بحثا عن الشكل الروائي المستجد، وكذلك لما يحويه هذا التراث من دلالات رمزية مكثفة تسهم في منح النص

زوايا متعددة للقراءة، لأن المادة التراثية تبرز "باعتبارها مادة ثقافية يمكن تحويلها، أو رأسمالا رمزيا يمكن صرفه واستثماره، أو منجما معرفيا يصلح التنقيب فيه، أو بنى لا معقولة ينبغي تفكيكها أو حقلا دلاليا ثمة حاجة إلى أن يقلب ويعاد حرثه."[1] ، كما أن التراث الشعبي يشكل مخزونا ثقافيا يضاهي المخزون الرسمي لأية أمة، ولا مناص من اعتباره جزءا مهما من كيانها ومقوما أساسيا يشكل عنوانا لسيادتها وأصالتها، وهذا ما لمسناه لدى الروائي العربي وهو يستلهم التراث الشعبي في أعماله الروائية، حيث وجد فيه معينا لا ينضب لما يشبع ميوله ويقرب نظرته الجمالية والفنية التي تنتج عن تجربته ومغامرته، بالعودة صوب التراث وتمثله، وكذا مد جسور الماضي بالحاضر، ومحاولة توطين النوع الروائي في بيئة عربية تستدعي النزعة التأصيلية بعدم إضاعة الهوية العربية من بين ما عنَّ للروائي وهو يستوحي تراث مجتمعه الشعبي، كما يشكل هذا التراث قناعا جيدا للروائي وهو ينتهك المحظور السياسي حتى يبتعد عن مقص الرقابة ويبتعد عن كل أشكال المضايقات من الأجهزة الحكومية، وعليه يصبح ما هو شعبي مساهما في مؤازرة ما هو رسمي باعتباره مصدرا مهما من مصادر الإبداع وقادرا على التكفل بإنتاج رؤية تكون قادرة على التعبير عن الشواغل الروائية، بطريقة إبداعية "فالمطلوب تجديد النظر في مختلف فعاليات التراث العربي الإسلامي بأسئلة جديدة وأدوات جديدة ووعي جديد بقصد الاسهام في فهم جديد للذات في علاقاتها التفاعلية بالنص والواقع الذاتي والعصر الحديث. وفي هذا العمل فليتنافس المتنافسون، وليتحقق الحوار لا السجال، والإنتاج لا إعادة الانتاج...خدمة للتاريخ العربي، والذات العربية والمستقبل العربي..."[2]

وفقا لهذا الطرح فإن شعرية الرواية وجماليتها تنبع من تضافر عناصر ومكونات أهمها تذويب الحدود بين الأجناس الأدبية وغير الأدبية الرسمية والشعبية، التي تسهم دون شك في الإفادة من طاقاتها التعبيرية وإمكاناتها في مختلف الأشكال والخطابات، فهذا الحضور لما هو شعبي داخل ما هو رسمي لم يأت على سبيل التزيين والمعرفة بالشيء فقط، بل شكل هذا التراث قاعدة متينة انطلق منها صناع الرواية كي يبلوروا طروحاتهم حول ما يدخل ضمن الأحداث الكبرى التي تعاقبت على الأمة الإسلامية، بتوظيف البطولات والاحتفاء بالأبطال وتخليد المآثر والتمثيل بين واقعين: أحدهما آل إلى زوال وظلت أحداثه نابضة بما قدمه من انجازات أو اخفاقات، وواقع معيش يشيد حضوره من اللحظة الآنية واللحظة الغائبة..

---

[1]– علي حرب: أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1994، ص83.

[2]– سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي (من أجل وعي جديد بالتراث)، المركز الثقافي العربي، ط1، آب أغسطس، 1992، ص ص149.150.

وعليه سيتناول الباحث في هذه الورقة العلمية تمثل الأدب الرسمي للأدب الشعبي من خلال حضور الجازية الهلالية في عينات روائية جزائرية، حيث تم استلهام السيرة فيها كتناص داخل البنية الروائية على مستوى توظيف المادة الحكائية وعلى مستوى التداخل الأجناسي التي استفادت منها الأعمال الروائية في نسج أحداثها التخييلية، فكانت خير معين وخير طريق يعتمد.

2/ تمثل الروايات للسيرة الهلالية من خلال توظيف الجازية الهلالية:

أ-الجازية في رواية الجازية والدراويش لابن هدوقة من المحاكاة إلى إمكانية التحويل:

- **الجازية بحجم الوطن/المرأة الهلالية التي صنعت تاريخ الرجال.:**

تجري أحداث رواية الجازية والدراويش في قرية نائية تسمى: قرية "الصفصاف" التي تعيش على وقع المشاريع الرامية إلى التغيير "القرية تقع في قمة الجبل، الطريق إليها وعرة مسالكه ويصعب الوصول إليها إلا على الذين عاشوا فيها وألفوها وهذا الموقع يجعلها تعيش في شبه عزلة، وهي تتسم بشيوع عادات وتقاليد قديمة يسهر على المحافظة عليها مجموعة الدراويش الذين يظهر أن بين أيديهم الحل والربط وهم يتغذون في تفكيرهم وسلوكهم من الأولياء السبعة والجامع وكل ما خلفه لهم ماضي أجدادهم وينظمون تجمعاتهم بإقامة الزردة والحضرة حيث يعيشون نوعا من النشاط التصوفي الخاص، تتردد فيه الأدعية الشاعرية المسجوعة ويتمتعون بحركات الرقص المصحوبة بلعق المناجل الساخنة."[3] حيث يقدم لنا الروائي مجموعة من الطلبة الجامعيين الذين جاؤوا كي يساعدوا فلاحي القرية وعددهم سبعة، وقد ركز الروائي على شخصيتين باعتبارهما أساسيتين في تنامي أحداثه التي تنبني وفق الإيديولوجية الاشتراكية، التي كانت سائدة زمن كتابة هذا العمل، تتمثل الشخصية الأولى في الطالب "الأحمر" الذي يحمل أحلاما حمراء ومشاريع اشتراكية، ويدافع عنها كي تطبق على أرض الواقع، لكن تصطدم تلك الرغبات بالدراويش الذين يرون في هؤلاء الطلبة خطرا مقيما يترصد بالقرية "الناس ينتظرون مشاريع خضراء وهو جاءهم بمشاريع حمراء، قال لهم لا تغتروا بالخضرة، إن مثلت الربيع، فلن تمثل النضج بحال"[4]، أما الشخصية الثانية فتتمثل في المتطوعة صافية "التي تتحلى بالهدوء والرزانة وتنبذ الاندفاع المجاني، لولا أنها تدخن، وتلبس سروالا، مما يزهد السكان فيها ويجعل الدراويش ينسجون حولها حكايات يشحنونها بالمبالغة والمزايدة للإساءة إليها، وتشويه سمعتها."[5] وبالمقابل نجد الشامبيط الذي لا يحب سوى مصلحته، ومعه ابنه الذي يدرس في أمريكا

---

[3]- مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر (دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2000، ص62.

[4]- عبد الحميد بن هدوقة: الجازية والدراويش، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، دت، ص21.

[5]- مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر، ص63.

ويحاول مع شركة أجنبية بناء سد في القرية وترحيل السكان إلى قرية أخرى. وأمام تشعب أحداث الرواية التي تنقل لنا مقتل الطالب الأحمر ويتهم الطيب بتدبير أمر قتله ويزج به في السجن وهذا ما تخبر به الرواية عبر صفحاتها الأولى، وفي هذا التنامي للأحداث تتأسطر الجازية بجمالها الأخاذ ويكثر مريدوها، ومحبوها، ومعجبوها، وخطابها ويحتدم الصراع بين الشخصيات الممثلة في العمل من أجل الزواج من هذه الفتاة الجبلية بارعة الحسن والبهاء، فكان الطيب بن الأخضر الجبايلي الذي أحبها منذ الطفولة، وكذلك عايد بن السايح بولمحاين المهاجر الذي عاد أيضا ليتزوج من جازية، وكذلك ابن الشامبيط الذي يدرس في أمريكا فقد كانت نية أبيه أن يخطبها له، والأحمر الذي راقصها وحاول رؤية وجهها لكنها أبت ذلك، وقد مثلت جازية قطبا وهاجا تحوم حوله كل الشخصيات والكل يرغب في الظفر بها، فهي من أصل شريف وابنة الشهيد الذي كان شعبا فَقُتل بألف بندقية... إن الجازية رمز للوطن الذي كافح لأجله شعب من أجل التحرر والتطور..

الجدير بالذكر ها هنا بداية أن الجازية جاءت عنوانا للرواية في حد ذاتها وهذا ما يشي بأنها شخصية محورية تدور الأحداث حولها، والمعروف كذلك أن الجازية تنتمي إلى الأدب الشعبي، وتحديدا كونها شخصية بارزة ومهمة في السيرة الهلالية بجزئيها (السيرة والتغريبة)، والمطَّلِعُ على تلك السيرة سيجد الكثير حول ما قيل عنها، باعتبارها صاحبة الرأي الحصيف والسديد ذات التدبير والبصيرة النافذة، فهي البطلة المتمردة والثائرة الخبيرة يستشيرونها في الأوقات العصيبة الصعبة والخطيرة، حتى أنها تشاركهم القتال، مشهورة وسط قبيلتها وخارجها بفتنة جمالها، وقوتها وتضحيتها فهي "أخت الأمير حسن بن سرحان هي البدر في ليلة التمام، إنها مضرب المثل في الجمال والحكمة وحسن التدبير، ورأس الفتنة وصاحبة الرأي والمشورة في قبيلة الهلاليين."[6]، بل هي بطلة لملحمة تاريخية ضاربة في القدم كان لها فيها جميل الأثر "ذلك أن هذه الأم دخلت معترك الأحداث منذ بدء رحيل بني هلال وشعور القوم بالحاجة الماسة إلى الاسترشاد لبصيرتها النافذة ودهائها"[7]، كل هذه الأوصاف وغيرها استثمرها الروائي وجعلها تعضد ما يصبو إليه من أفكار ترتبط ببناء عالمه التخييلي، الذي جعل من بين مصادره التراث الشعبي حيث وقع الاختيار على اسم الجازية بما تحمله من مميزات تؤهلها كي "تشكل البؤرة أو المركز الذي تدور حوله محاور النص، ومنه تتوالد معانيه وتتناسل دلالاته"[8]، والمتتبع بتمعن لنص الرواية سيجد ذكرا لاسم الجازية الهلالية التي ذكرت مرة واحدة في ثناياها ربما تكون الغاية منها التنبيه على ضرورة فتح الذهن والانتباه لأن هناك ما يمكن

---

[6]– محمد المرزوقي: الجازية الهلالية، قصة من التراث الشعبي، الدار التونسية للنشر، دط، 1983، ص22.

[7]– وفاء علي سليم: الأم بين الملاحم والسير (دراسة مقارنة)، وكالة المطبوعات عبد الله حرمي، الكويت ط1، 1982، ص212.

[8]– الطاهر روابنية: الفضاء الروائي في الجازية والدراويش، المساءلة، مجلة اتحاد الكتاب الجزائريين، ع1، ربيع1991، ص14.

عده نقاط تقاطع بين الجازيتين سيريا وروائيا "أشيعت حولها ألف خرافة، تفوق ما شاع من خرافات حول الجازية الهلالية..."[9] ووفاقا لهذا فإن جازية بن هدوقة مغرقة في الأسطرة بل تفوق كل الأساطير لإيغالها في ذلك، فحتى الاشاعات وما اكتنز في المخيال الشعبي حول الجازية الهلالية لا يضاهى ولا يقاس أمام الجازية الروائية، فهذا الاسم "حامل لشحنة من المعاني مصدرها التراث الشعبي. لقد اندثرت السيرة الهلالية كشكل فني غير أن صورة الجازية ظلت قائمة في أذهان الناس عن طريق بقاياها التي تحولت إلى ألغاز وأمثال ومجموعة مواقف، والجازية في التصوير الشعبي امرأة بديعة الجمال خارقة الذكاء حسنها لا يوصف ونفاذ بصيرتها لا يحد"[10]، ولجمالها الأخاذ وصفتها المصادر التي اشتغلت على السيرة الهلالية وقدمتها ذات حسن منقطع النظير فهي: "جميلة المنظر لطيفة المحضر، بديعة الجمال، عديمة المثال في الحسن والكمال والقد والاعتدال وفصاحة المقال، لا يوجد مثلها بين الخلق لا في الغرب ولا في الشرق."[11]

إذن من بين نقاط الاشتراك بين الجازيتين: **الجمال** وقد تحدث صاحب الرواية عن أسطورة جمالها الذي جعل الكثيرين يتمنون الارتباط بها فهي حين "تضحك صباحا فتنتشر ضحكتها أغاني عذابا في العشايا، تغنيها الفتيات والرعاة. ويعلم الناس أن الجازية ضحكت! إذا سكتت هب الدراويش لإقامة زردة، استرضاء لها واستعطافا!"[12]، إن جمالها مغر ولا يقاوم، إنها امرأة للكمال والمثال فهي مثل فينوس إلهة للجمال يتعبد العاشقون في محرابها، صلواتهم كلها قرب واستجداء لها، فبهاؤها كما وصفه الطيب بن لخضر الجبالي "تجلى في أبدع مكنوناته! حقرت نفسي أمامها، امتلكني حزن غريب وأنا أرى نفسي تصغر كلما رفعت بصري إليها، إن جمالها مخيف! إذا ابتسمت يهتز الوجدان إليها. إذا تكلمت تنفتح النفس كلية لاحتضان كل ذبذبات صوتها!... مددت يدي للجازية أصافحها فإذا وجهها يعود إلى اشراقه الأول ووداعته السماوية!"[13]، لقد عمّت المسحة الأسطورية لجازية كل القرية، بل تجاوز اسمها ورسمها حدود القرية، وصولا إلى المهجر إنها أسطورة للحب، والعشق، والتناحر، معا إنها النور الوضاء والشمس المشعة والمحرقة في آن، وهي أيضا مصدر للنماء والخصب وللخير العميم "الجازية أخرجت الدشرة من سبات القرون. أعطتها حياة حافلة خصبة بدل حياتها الميتة... كانت غريبة الأطوار لا تستقر على حال. عيونها تعد وتتوعد بسمتها ترتفع بالنفس

---

[9]– الرواية، ص25.

[10]– عبد الحميد بورايو: منطق السرد، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، 1994، ص119.

[11]– عبد الحميد يونس: الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، دار المعرفة، ط2، القاهرة، 1968، ص203.

[12]– الرواية، ص101.

[13]– الرواية، ص ص72/71/70.

إلى البعيد من السدم. لكنها كالنور قربها محرق!"[14] ومن بين الأمور الظاهرة والتي تم الاشتراك فيهما مسألة الحكمة والبصيرة النافذة، وسداد الرأي، والتريث، والقيادة، إذ تقدم السيرة الهلالية في شقها المرتبط بالتغريبة دور المرأة في مختلف الأحداث التي تمر ببني هلال، ويبرز إذ ذاك اسم الجازية بدورها النضالي أثناء الحرب وبعدها، وهذا راجع لسداد رأيها في حياة القبيلة الهلالية، فعندما تدلهم الأجواء يرجع لرأيها الحكيم والحصيف، والحاسم أيضا في اتخاذ القرار، خاصة في تخليص الهلاليين مما يحدث معهم من مواقف صعبة، نظرا لشجاعتها وتضحيتها من أجل قبيلتها، فَصُوِّرت على أنها رمز للنضال والقوة والصبر تقول: "سمعت كلامكم وفهمت مرامكم، رايكم راي فطير ما فيه خير ودونه موت الشاه والبعير، وعذاب الصغير والكبير، ما بقى للقوس منزع، ولا للصبر موضع، الأهل ماتوا بالجوع وأنا ما أرضى لأهلي الذل والخنوع."[15] وتظهر تضحية الجازية في سبيل قبيلتها عندما تتزوج من أمير مكة ذي السبعة عيوب، ويحدث التقارب ها هنا إذ نجد الجازية في الرواية تمرر كل مريديها على مصفاة العقل بحكمة وروية وتعقل ودون تسرع أو عجلة، حيث أنها استطاعت براجحة عقلها التمييز بين من يريدها لذاتها وبين من يريدها لأغراض أخرى تقول: " أقبل زوجا ابن عمي الأخضر الجبايلي. لكن أخشى عليه من دسائس الآخرين. كلهم يريدونني لغاية، لا تتلاقى مع الحب الذي أبحث عنه لدى الزوج. هم تجار وسماسرة، أكثر منهم خطابا."[16] ينضاف إلى الأمور سالفة الذكر التي تتقاطع والجازيتين المغامرة والحرية..

لقد سَمَتْ الجازية من مجرد الاسم الدال على الذات إلى الرمز المنفتح على الممكن والمحتمل، فهي تمثل الأرض التي تتنازعها تيارات عديدة للظفر بها مثل: التيار الاشتراكي ممثلا في الطلبة المتطوعين (الأحمر خاصة)، التيار الليبيرالي الموالي للمستعمر والذي يمثله الشامبيط "هكذا يقبض الصراع بين المشروعين كفكي كماشة على القرية، مشروع إقامة السد وترحيل السكان إلى قرية جديدة، ومشروع يعارض إقامته ويتزعمه المتطوع الأحمر، يهدف مشروع الشامبيط –كما يتبين– إلى قطع القرية عن ماضيها لتصبح في تبعية مطلقة للأجنبي، بينما يرمي مشروع التطوع إلى محاربة هذه التبعية... "[17] والتيار المحافظ الذي يمثله الأخضر بن الجبايلي، وربما تيار طرقي يتمثل في الدراويش، وما يمثل الثورة التحريرية والد جازية الشهيد، وكل من سقت دماؤه هذه الأرض الشريفة الطاهرة.

---

[14]– الرواية، ص24.

[15]– محمد المرزوقي: الجازية الهلالية، قصة من التراث الشعبي، ص24.

[16]– الرواية، ص76.

[17]– مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر، ص63.

إن هذه الرمزية الدالة على الوطن وما يعانيه في راهنه من أزمات وتقلبات، وما يتجاذبه من تيارات متعددة تحاول جاهدة الانتشار بسرعة فائقة، لتفويت الفرصة على تيارات أخرى مزاحمة والتحكم في زمام أمور الدولة خاصة بتراجع المد الاشتراكي وفشل المشاريع التي ارتبطت بها مثل: الثورة الزراعية وغيرها... وبداية دخول الدولة التعددية الحزبية التي أفضت فيما بعد إلى شلال من الدم ظل يسيل لسنوات عديدة، وربما هذا هو مكمن الاختلاف بين الجازية الهلالية التي قتلها ذياب وبين جازية الرواية –الجزائر– التي ظلت النهاية فيها مفتوحة لاحتمالات لم يتم حصرها في أحداث بعينها.

ب– جازية واسيني الأعرج في تجربته نوار اللوز (تغريبة صالح بن عامر الزوفري) الروائية.

- **الجازية أمثولة لفارس اليتامى/الحلم:**

تحتفل هذه الرواية بسيرة بني هلال في شقها الثاني المرتبط بالتغريبة، ولا بأس في ذلك كون أن القارئ بمجرد رؤية العنوان الفرعي: تغريبة صالح... سيدرك لا محالة أن هناك تداخل بين الرواية والتغريبة الهلالية، ثم يكون موقنا أن شخصية صالح هي قطب الأحداث وبؤرتها باعتباره شخصية محورية في هذه الرواية، وقد تم اعتباره آخر سلالة الهلاليين أو المجانين على حد تعبير واسيني الأعرج.

منذ البداية يحث الروائي القارئ على ضرورة قراءة نص التغريبة كي لا يتعب وهو يتتبع مسالك لغتها، عازما على قراءة النص الجديد والتعرف على مجريات هذا العمل، ويتمثل ذلك من خلال فاتحته النصية التي يقول فيها: "قبل قراءة هذه الرواية التي قد تكون لغتها متعبة. تنازلوا قليلا واقرءوا تغريبة بني هلال. ستجدون حتما تفسيرا واضحا لجوعكم وبؤسكم. ما يزال بيننا، وحتى وقتنا هذا، الأمير حسن بن سرحان، ذياب الزغبي، أبو زيد الهلالي، الجازية... فمنذ أن رمينا على هذه التربة الجافة وإلى يومنا هذا، ما يزال النصل هو لغتنا الوحيدة لفك خلافاتنا المزمنة."[18] والملاحظ على التغريبتين وجود شبه كبير بينهما وخاصة بورود أسماء شخصيات تغريبة بني هلال ضمن المتن الروائي بتضمين واقتباس كثير من مما جاء في التغريبة "إن الأمثلة كثيرة وينضح النص بهذا التعالق الوثيق بين أعلام التغريبتين إلى الدرجة التي يصعب معها أحيانا تمييز الشخصيات المشاركة في القصة عن غيرها من الشخصيات المستدعاة من عالم تغريبة بني هلال. والعلاقة بين أسماء الأعلام الموظفة في الرواية تأخذ أحيانا بعد المشابهة أو المقابلة."[19] ، لكن الرواية حملت قيما أخرى

---

[18]– واسيني الأعرج: نوار اللوز (تغريبة صالح بن عامر الزوفري)، دار الحداثة، ط1، 1983، ص04.

[19]– سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي، ص55.

بانفتاحها على التاريخي والسياسي والواقعي، فإذا كان بنو هلال قد تركوا نجد واغتربوا صوب بلاد المغرب مجبرين للحالة المزرية التي وصلوا لها جراء المجاعة التي عمت البلاد "عندما ننظر في مصطلح التغريبة في بني هلال نجده يوحي إلى دلالتين متآزرتين: أولهما تعني التغرب بمعنى مفارقة الوطن الأصل، مع ما تحمله مفارقة الوطن من معاناة وغربة وثانيتهما، تعني التوجه نحو بلاد المغرب، على اعتبار كون الوطن الأصل لأبطال التغريبة هو المشرق. إن التوجه إلى بلاد المغرب بما فيه من مفارقة الوطن وغربة. لا يعني بالنسبة لعالم التغريبة غير الحزن والبكاء والدم. وذلك لسبب واضح يعود إلى كون المتغربين يفعلون ذلك بدافع البحث عن موطن الكلأ (الحياة)، وإنقاذ حياة الأبناء الثلاثة المحتجزين في تونس. إنه تغرب إجباري، وليس اختياريا، لأن البقاء في نجد يعني الهلاك الجماعي نتيجة الجدب."[20] فإن صالح الزوفري (الوحيد) أجبرته ظروف الفقر على التهريب/التغريب بنقل البضائع المهربة صوب الحدود الغربية، فما حدث تاريخيا بالأمس البعيد في السيرة الهلالية يشبه تماما ما يود الروائي الإخبار به، فإذا كانت التغريبة جماعية تمت باتحاد أمراء بني هلال حول ضرورة انقاض القبائل من المجاعة وتحقق مرادهم في بلاد تونس الخضراء وانتصارهم على خليفة الزناتي، فإن ما حدث من تفكك بينهم أدى إلى قتل بعضهم البعض من أجل السلطة والأرض والملك "يركب دياب جواده ويترك أبا زيد على الأرض فيرجع إلى قومه فيجمعهم ويخبرهم بأنه قتل أبا زيد وقد أصبح الآن ملك بلاد الغرب كله."[21] وهذا ما يحدث اليوم في جزائر الاستقلال، فإذا كان المجاهدون بالأمس القريب يقفون ضد عدو مشترك هو فرنسا، فإن ما يحصل اليوم هو ذلك الصراع بين أبناء الأمة الواحدة على الثروة والسلطة، مما أدى إلى ظهور صالح الزوفري المجاهد الفقير الذي يعيش في براكة ولا يملك قوت يومه وغيره كثيرون ممن يفتقدون العمل ويئنون تحت صوت الفقر والعوز "...تصوري يا الجازية، يا أخت الحسن، لو وجدنا شغلا بسيطا في حي البراريك ما أكلتنا مخاوف الحدود، حين نفقد طعم الحياة، نعود إلى أكل بعضنا البعض. نتآكل بيننا كالحيوانات المفترسة..."[22]

ما يهمنا في هذه الرواية هو حضور الجازية بالاسم وبالكثير من الفعل، إذ تكرر ورود هذه الشخصية في الرواية بما تحمله من ملامح كانت في غالبها ذات مسحة أسطورية عجائبية تبتعد عن الطبيعة البشرية بأفعالها الغيبية الخيالية، حيث تشكلت في مخيال صالح بن عامر الزوفري بهذا الشكل غير الواقعي إذ تأتيه الجازية من الضبابة التي تشبه الوحي، وهي النبية المقدسة المحاطة

---

[20]– سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي، ص52.

[21]– روزلين ليلى قريش: مفهرسة سيرة بني هلال الكبرى، ج2 التغريبة، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 2010، ص242.

[22]– واسيني الأعرج: نوار اللوز، ص18.

بهالة من نور، وهي الفارسة التي لا تقهر، وهي الغيمة والظل فهي حين تأتي لا بد أن يكون الحدث أسطوريا وغير نمطي مطلقا يقول الراوي: "تسرب في دمه مذاق السواك الهندي والعطور الصحراوية التي تنبعث من الجازية كلما تشقق حائط بيته الهرم، قبل أن تعود على أعقابها، تجر أتعاب بلاد المغرب، وبؤس نجد في كفها لجام عودها الذي لا يتعب."[23]، على هذه الحال فالجازية مجرد وهم وخيال، لكن صالح يستأنس بها في أحلك أيامه ويسترشد بها ويريد أن يكونها هي امتداد لواقعنا بكل تناقضاته. إنها مثل الفارس المخلص الذي لا يتوانى بطيبته وتضحيته وتفانيه أن يقاسي عناء العراء والبرد والجوع لأجل أهله وقبيلته، وعشيرته، وبني جلدته "الجازية أيتها النبية الهلالية التي لم تبع أشواقها للقتلة، سحبوك من ربوع مكة، وطافوا بك مرابع ومنتجعات بلاد المغرب المتعبة، أخوك كان طيبا لكنه كان خائبا ولم يكن شهما كوالدك. كتنوا أقوى منه ألف مرة. لعبوا له لعبة الغولة. فالملك يا الجازية يطير العقل. قطعوا بك أهوال بلاد نجد، ومصر، والعراق، وحلب وأجبروك على ابتلاع الآلام والانكسارات ومباغتات الأسفار التي لا تنتهي مسافاتها. ويوم فقدت مبرر عيشك معهم في بلاد الموت، وكانت مضارب بني هلال قد تمزقت، وجروحهم تنزف، وسيوف دياب الزوغبي تقطع الرؤوس بدون حساب ولا خشية، بكيت دمعتين على جثث الميتين ثم ركبت جوادا أصيلا وهربت مع غفير اليتامى. حرقت أملاك أخيك وعدت إلى التربة القاسية، تتدفئين بحطب الغابات والخلاء الموحش، وأقسمت في سرك، أن تطحني ذياب الذي قطع رأس الحسن بن سرحان في غفلة منه. وحين كان أهلك يتحاربون، كنت تشعرين دائما أنها حرب قوادين وسماسرة وتجار أسلحة ومخدرات. حين تيأسين من محيطك المتهالك، تنتابك غربة باردة، قاتلة تدفعك أحيانا إلى التفكير في الانتحار. فالملك يا الجازية شيطان، فرق بين أهل القبيلة الواحدة. أهلك غزوا بلاد المغرب وقاتلوا سكانها، ثم قاموا بتصفية أنفسهم بأنفسهم. حتى أبو زيد الذي اتكلنا عليه كثيرا، لم يكن أكثر من مهرج سياسي صغير، رضع من حليب الملوك. ذاق حلاوة بلاط الملك، فلم يستطع لحظة واحدة ترك أثداء بلاد نجد. كانوا مرضى السلطان، وكنت الطيبة الوحيدة، ولهذا حزوا رقبتك عندما اخترت مسالكك الخاصة."[24]، يحيل هذا المقبوس إلى إعادة اجترار ما هو متحقق في التغريبة، حيث عمد الروائي إلى ذكر ملخص لأحداث التغريبة منذ الخروج الأول من نجد وصولا إلى بلاد الغرب وما حدث بعد ذلك من انقسام داخل الهلاليين، لكن هذا لا يعني التكرار أو مجرد التزيين وإنما جاء هذا التوظيف نظرا للتشابه الحاصل بين السياقين من الناحية الثقافية، والاجتماعية، والسياسية التي أدت بطبيعة

---

[23]– واسيني الأعرج: نوار اللوز، ص07.

[24]– نفسه، ص128.

الحال إلى إقامة علاقة مخصوصة بين ما قد مضى وتحقق وما هو حاصل متحقق ويظل كذلك، كون هذا التوظيف جاء على سبيل المعارضة وقد تم لا محالة بتوجيه من الروائي الذي خص بالذكر الجازية ومعاناتها في خضم التغريبة ومشاركتها قومها واستماتتها لأجلهم لكنها قتلت بجشع لأنها ببساطة هي المدافعة عن حق اليتامى، وهي صوت المبحوحين والمضطهدين والجوعى...، وهي كذلك الوجه الآخر الشبيه لصالح الزوفري الذي حمل البندقية ذات زمن مدافعا عن تراب هذا الوطن بكل ما أوتي من عزيمة، لكن بعد الاستقلال يجد نفسه من المهمشين الذين تضطرهم الظروف للمجازفة بالنفس بالتهريب على الحدود وما يكتنف ذلك من مخاطر قد تؤدي إلى القتل، مثلما حدث مع العربي ابن رومل صاحب المقهى، وعلى النقيض من ذلك فإن أمثال السبايبي القايد ممن خان الثورة وباع الوطن بالأمس القريب ينعمون في خيرات البلاد ولهم القوة، والسطوة، والجاه، والنفوذ، مع الدولة التي تحارب أمثال صالح الزوفري ومن يمثلهم مثل الجمركي النمس وخروقاته الكثيرة التي لا يحاسبه عليها أحد "إن العلاقة بين شخصيات التغريبة (أبو زيد...) ورجال السلطة في نوار اللوز هي المقامرة وجني الأرباح ضد الجازية وفقراء الوطن الطيبين والمستغلين. العلاقة واحدة وإن تغير الزمن. ونجد الشيء نفسه في المثال الثاني. حيث يضع صالح نفسه مثل الجازية ضد السبايبي باعتباره أحد رموز السلطة والذي يشبه الحسن بن سرحان."[25]

لقد شكلت الجازية بما أنها شخصية تراثية مفعمة بالحياة وبما تحمله من اشعاع دلالي مكثف ينفتح على عديد الاحتمالات ملاذا لصالح الذي تنتابه خيباته، وانكساراته، آماله، وآلامه حد التعب من السكر يلجأ إليها وتلجأ إليه يتجاذبان أطراف الحديث. هو يعشقها لكنه يائس أمام انتظارها تنبسط نفسه حيالها عندما تشق الحائط وتتجلى له مثل ومض... "لم يقل شيئا ولكنه تذكر من جديد وجه الجازية، ومتاعب الليلة الماضية. هذه هي عادة صالح الزوفري. عندما تقتحمه الأحزان، ينزوي في براكته، ويخرج بقايا النبيذ المعتق. ويأتي على القناني واحدة واحدة، حتى يرى الحائط ينشق، لتتسرب منه الجازية مثل الومض بلباسها الفضفاض الأبيض. كل اللذين عاشوا اللحظة يروون ذلك. عينا الجازية تذبحان ولا تتركان من يلمسهما حياديا. صالح يضيع لأنه يشعر أن الجازية من دمه وهو من لحمها. يختلط وجهه بوجه المسيردية ولونجا. الجازية حينما تخرج من الحائط المنشق، يقسم الذين رأوها أنها تأتي وفي يدها سيف عربي قديم ودمعتان متجمدتان في المحجرين. وعندما يحاولون تذكر خطوط وجهها الصافية، تخونهم الذاكرة فجأة."[26]

---

[25]– سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي، ص56.

[26]– نفسه، ص13.

تخبرنا الرواية عن شخصية لونجا القبائلية التي تضارع الجازية الهلالية، إذ لا أحد يشبهها سواها، وقد ولع بها صالح بن عامر الزوفري وأراد الزواج منها حالما تكون الفرصة سانحة، وهي التي سوف تحمل الطفل الهلالي الجديد الذي به تتغير المعطيات وتتفتح بمجيئه أزهار اللوز فاسحة المجال لفصل جديد أو واقع جديد "هه... تمتم صالح... يا الجازية، سأذهب، ولكن حين أنجب أولادا سأحكي لهم عنك وعن محيطك وعن الأيام التي عذبتك وكادت تشوهك مثلما شوهتني. صدقيني. كنت مصمما على الرحيل إلى بلاد أخرى، لأن أرضنا أصابها القحط الذي غزا بلادنا ذات زمن بعيد. أنا لست قوادا ولا عبدا نذلا مثل أبي زيد الهلالي الذي شرب ماءنا وأكل ملحنا وسبقنا إليه ملوك بني هلال. الخلاف بيني وبينه يا الجازية، وأنت سيدة العارفين، هو ان مصلحته كانت مع ملوك نجد بينما ظلت مصلحتي في عمق عينيك اللتين اضطهدهما كبار الهلاليين، ومع لونجا وروميل وماما حنا عيشة والذين تهب الرياح يخافون على أسطحهم الزنكية قبل أن يخافوا على أنفسهم. هذه المرة سأكون مثلك. بقدر ما يقسون علي، أزداد تصلبا وقوة حتى ينور اللوز، وكما تعرفين أن اللوز حين ينور، يكون الربيع قد بدأ والشتاء يتضاءل. سأكشف كل أوراقهم المخفية. الكتاتبي وليد شهيد، ولن يخون دم والده."[27] فحتى وإن حدث التعالق بين التغريبتين فإن الفوارق بينهما واضحة، فنوار اللوز هي الرواية وهي الواقع، بينما التغريبة هي التاريخ هي الماضي هي الذاكرة، وصالح الزوفري قد جاءت تغريبته وفقا للسياق الذي كابد فيه خساراته وأحزانه، فبرغم من فقد زوجته المسيردية التي أحبها بكل ما يملك من طاقة، وعلى الرغم من أن آخر أطفاله قد أكلته قطط المستشفى، فإن ميلادا جديدا كان في الانتظار سيذيب ثلج الشتاء ويقف جنبا إلى جنب مع المستضعفين، ويقضي على بني كلبون "تصوروا يا عباد الله الطيبين، عائلة المجانين تبعث من جديد؟ النور بدأ يدخل محاجر عيون موتى بني عامر. آه يا صالح يا آخر أشقياء السلالة. صدقوا أن ما تسمعون بحدوثه في آخر العمر هو صحيح، فلونجا تصدق حتى ولو هددت رقبتها بالذبح، الأنبياء يموتون ولا يكذبون. ها قد جاء الذي سيقتل بني كلبون ويعيد بناء أمجاد اندثرت على ما تبقى من ركام قبيلتنا. الزمن دار عليها طحنها كما تطحن هذه الأيام قلوبنا. الأولون وهم صفاء السلالة أكلتهم الزلازل والمجاعات وأمراض التيفوس التي اجتاحت بلدتنا الأولى ذات صيف. وصرع الجنون البقية المتبقاة. والدنيا سائرة دائرة. ها...ها...ها... ستسقط نبوءة سيدي علي التوناني

---

[27]– الرواية، ص221.

وسيكون هذا الجيل الذي سأرثه من رحم لونجا قمة نقاء هذه السلالة لأنه ولد من الفقر وفي الفقر ولحظة الفقر."[28]

تحضر الجازية أيضا في الرواية بكل غنجها، حسنها وجمالها الذي يغطي على كل جمال، إنها فاتنة محاطة بهالة من النور، فهي مثال للمرأة المضحية التي تركت الإمارة والعز والملك لأجل أهلها، وهي المرأة المناضلة المجاهدة المحرضة على القتال، وهي البطلة التي قادت النساء الأيتام (أبناء حسن وأبي زيد) إلى بلاد الكوع، وتصبح الفارس الناجح الذي يقضي على الفرسان، وهي الصلبة التي واجهت دياب لتأخذ منه بالثأر لأبي زيد وأخيها حسن، لكنها لم تصل إلى مرادها لأن دياب قد قتلها، لتصبح الجازية مثالا للمرأة القوية المكافحة والفارسة ذات البصيرة النافذة الماهرة صاحبة الفطنة، والقائدة، وهي الحنون الرؤوم القريبة من الفقراء والمساكين والجوعى والبسطاء والعاديين والمهمشين...

ج- الجازية في رواية راس المحنة لعز الدين جلاوجي:

- **الجازية بمثابة أمل وتضحية/من المحنة إلى المنحة/الخلاص**

بداية يمكن الإشارة إلى أن الروائي استوحى لعمله هذا عنوانا مستقى من التراث الجزائري راس المحنة، فهو في التراث الشعبي عبارة عن قصيدة شعبية كتبها الشاعر الجزائري لخضر بن مرزوق في محاورة جمجمة وجدها مرماة في الخلاء يقول:[29]

هذا وطنك والا جيت براني
يا راس المحنة لله كلمني
حر أنت والا مملوك حطاني
والا انت خاين قبضوا عليك خيانة
باعوك بقيمة ربعين سلطاني
والا انت ماكر نصاب للضلالة
وإلا قاتل روح على اهلك جاني

إن هذا الاستثمار جاء لطرح أسئلة كثيرة وعميقة في آن، لأن الرواية ترتبط ارتباطا وثيقا بالمحنة التي مرت على الجزائر في عشريتها الحمراء، وذلك لاستقراء الأسباب التي أدت لذلك، حيث اتخذ الروائي موقفا من الوضع الراهن بمحاولة الكشف عن الواقع وما يحمله من تناقضات، فجاءت الرواية

---

[28]- الرواية، ص ص213/212.

[29]- عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2000، ص233.

عبارة عن مساجلات تحمل حالة من التوتر المبني على التقابل بين: الماضي/الحاضر، المدينة/الريف، حي الحفرة/الأحياء الغنية الراقية، المخلصين والأوفياء/الخونة وأصحاب النفوذ، الفقراء/الأغنياء، صالح الرصاصة رمز الجهاد والثورة/أمحمد أملمد ابن الحركي رمز الطبقة البرجوازية الجديدة ممثل الانتهازيين والمافيا... لتنقل لنا الرواية صراعا طبقيا بين "طبقة أثرت واغتنت واستوت على عرش المال... وطبقة هوت إلى الحضيض الأسفل فاحتمت بدرع الدين... والسلطة عندما تطبق سياسة ملء الملآن وتفريغ الفارغ.."[30]

للوقوف على المحنة وما انجر عنها تفتح الرواية شرفتها الأولى بذكر اسمين عالقين بالذاكرة الشعبية إنهما: الجازية وذياب، وقد وضعهما الروائي منذ البداية موضع المُخَلِّصَينِ الذين سيغيران واقع قائما بواقع جديد مختلف، وهما على ما يبدو متقاربين عاطفيا، واذا أرجأنا قليلا الحديث عن طبيعة العلاقة بينهما في الرواية، وحاولنا اكتشاف حقيقة العلاقة بينهما في السيرة الهلالية سنجد أن الجازية كانت حب دياب الوحيد، لكن أخاها زَوَّجها بملك مكة، وظل هذا الأمر دفينا حتى تحول إلى انتقام "ترد الجازية على دياب وتلومه لأنه تآمر عليها ليأخذها من زوجها شكر الشريف قبل ذهابهم نحو بلاد الغرب فلتتابعهم تركت أولادها وزوجها... تلومه الجازية لأنه بسبب مكائده ضدهم بعد وصولهم إلى بلاد المغرب وبعد ما أخذ قسطه يذبح حسن في نومه ويضرب أبو زيد الذي ساعده على الرجوع من المنفى. تلومه على ما فعل ضدها وضد اليتامى. يرد دياب على الجازية يتهمها بما كانت هي السبب الرئيسي في كل ما وقع له من مصائب ومصاعب –كانت مخطوبة له لأنه خلق ليتزوجها وخدعه حسن أخوها عندما أعطاها شكر الشريف... فإنه قاصى ما قاصى بسبب حبه لها لذلك كله قتل حسن وأبو زيد."[31]، إذ قتل ذياب كلا من حسن أمير الهلاليين، وأبا زيد وهو من خيرة الفرسان، وفي نهاية التغريبة يقتل الجازية أيضا... لكن هل تختلف جازية هذه الرواية عن السيرة الهلالية؟ ام أنها تتداخل معها؟ هذا ما سنحاول البحث عنه حتى يتم التعرف عن كيفية الاشتغال على شخصية بحجم الجازية بكل ما تحمله من رمزية وانفتاح على آفاق مجهولة لا يتم اكتشافها إلا بالوقوف على مدى فاعليتها.

تبدو شخصية الجازية من خلال السرد شخصية ممثلة في العمل الروائي، وهي ابنة البطل صالح الرصاصة الرجل الثوري المجاهد ابن الثائر الشهيد سالم العلواني "...لكنني كنت آكل الذكريات... ذكريات الشباب وذكريات الثورة لما كنا لا شيء يجمعنا غير الحب... حتى كنا نقتسم

---

[30]– الرواية، ص161.

[31]– روزلين ليلى قريش: مفهرسة سيرة بني هلال الكبرى، ج2 التغريبة، ص ص253/252.

التمرة الثلاثة والأربعة.. ونقتسم الرصاصة والدمعة.. ونقتسم الابتسامة.."[32]، كما يرد ذكر الجازية وأبا زيد الهلالي باعتبار أن قصتهما أصدق من التاريخ المشوه، فهي أسطورة لكنها صادقة لأن الجازية هي الأرض هي الخصب والنماء، ولأن أسطورة الأبطال التي يصنعها الشعب هي الأصدق وهي التي يجب أن تحتذى، وفي مقابل ذلك فإن الأبطال الرسميون الحقيقيون وراءهم مُزيفون رسميون يحققون جراء ذلك أغراضهم بخداعهم عامة الشعب.

وسط هذا الجو الكئيب الذي تعانيه المدينة المومس بسوادها وحزنها وانكسارها وموتها وبؤسها، إنها مدينة موبوءة تمثلت في حارة الحفرة التي كان يجب أن تكون ربوة بدلا من الحفرة بكل أبعادها ودلالاتها السلبية، بما أنها حي هامشي منسي يفتقر لأدنى متطلبات الحياة المعاصرة، إنه حي شعبي يقطنه البسطاء والمقهورون والمحرومون، تخرج منه حكايا كثيرة لأبطال عبروا منها، وأبطال سكنوها، وآخرين ستكون لهم كلمة الفصل في نهاية الرواية، لكن في هذا الخضم وهذا التعب تظهر الجازية بكل حسنها وجمالها وعذريتها مثل نبية مخلِّصة متحدية كل الصعاب وسط هذا التمزق والعنف القائم، الجازية شكلت بحضورها نموذج الفتاة المثقفة الرزينة وتسمو بنسبها إلى سلالة الشهداء والمجاهدين الذي دافعوا على تراب الوطن دون مقابل أو رغبة في تلقي أي مقابل، إنها مثال الأمل والخلاص الموعود والمنتظر، فهي من ستخلص حارة الحفرة من امحمد املمد ابن الحركي الذي صار بعد الاستقلال ذا نفوذ عظيم ويتلاعب بأحلام الفقراء ".. عدلت من ربطة عنقي.. سويت نظارتي.. أولاد الكلب سأشتريكم جميعا بمالي.. الكل تحت جبروتي.. أنتم وهذا الوطن الذي ضحيتم من أجله.."[33]، إنها أمل الجميع لأنها ستقضي على الديناغول الجاثم على صدور الضعفاء والمغمورين، لأنها لا تخضع بل تتمرد على كل من يتجرأ عليها أو على من تحب. وبعودتها سيحل الخصب وتعود الأرض لأنها هي الأرض ذاتها، وقد جعل منها الروائي معبرة عن الراهن وعن مأساة الوطن، عن الماضي ممثلا في الثورة عن البنادق عن الجبال وليالي الألم، عن واقع تغير وأصبح فيه الخائن هو السيد هو الملك هو السلطان والبقية الباقية من الشرفاء مفسدون...

"ها قد عادت الجازية..

ها قد عدت.. عدنا..

حين تعود الجازية كل شيء يعود..

يعود الإشراق للقمر..

---

[32]– الرواية، ص21.

[33]– الرواية، ص91.

تعود الأوراق للشجر..
تعود الأنسام للهضبات وقد ضمختها حناء الشفق الوردي.."[34]
عبر الروائي عن الأزمة الجزائرية وحكى عنها في متنه الروائي موظفا شخصية الجازية التي جعلها من شخصيات روايته، وهي إن صحت العبارة حضرت بلحمها ودمها وفق متخيل عز الدين جلاوجي الذي رأى فيها سيدة للحسن والبهاء، وأنها شمس مشرقة أينما تحل يرغب فيها الجميع
"كانت هيفاء ممتلئة خصبا ونماء..
سمراء بلون الأرض المعطاء..
في عينيها حسن متمرد وكبرياء كئيبة..
شفتاها ترجفان كورقتي نعناع يانعة.. يداعبها نسيم الصبا..
على الجبين تدلت ذؤابة شعر حالكة فرت من سجن الخمار وحصاره..
الخمار القوزحي كان يعصر رأسها فيكوره بلورة من كل لون...
ماذا أقول؟ لو بقيت العمر كله أفتش في تضاريس الرأس
والوجه.. أسجد للحسن فيهما ما وفيتهما حق العبودية والإخلاص
آه يا لون القمح.
يا لون القمح الطالع من ربوة القلب
لن أشفى من هذا القر الداهم حتى احتمي بدفء عينيك."[35]
تظهر الجازية ها هنا بكل جمالها وجلالها وغبطتها غزالة شاردة ترنو لها العيون، وينتظرها البسطاء والمحرومون، سكان حارة الحفرة الذين هم في القاع كي تحررهم تأخذهم إلى بر الأمان، لأنها بكل بساطة مثال للمرأة الصامدة التي تقف في مواجهة الأزمات، إنها الأخت الحنون، والمنتقمة في نفس الوقت كونها ستثأر لصالح الرصاصة ولأخويها عبد الرحيم ومنير، لعبلة الحلوة إبراهيم جحا، الشيخ صالح، العيد الضحوي، عميروش، عزوز البهلول، عمار لاكريطة، الشيخ العيفة..."تتهادى الشقراء راقصة حوله.. تفتح الأشداق مبهوتة مبهورة.. ترتفع صيحاتها.. على مرمى حجر تقفين مهرة جامحة.. تلتصق الشقراء به.. يعدو منير.. يسبقه دياب.. تحدق فيك عيون البنادق شزرا.. تشحذين القلب.. تشحذين الخنجر.. تدفعينه نحو القلب.. تغريسينه فيه.. يتهاوى نحوك جثة هامدة.."[36]

---

[34]– الرواية: راس المحنة، ص53.
[35]– الرواية، ص55.
[36]– نفسه، ص265.

على هذه الطريقة حيكت أحداث الرواية حيث جعل الروائي من الحب إطارا أفرغ فيه جسد الأزمة التي ألمت بالجزائر طيلة سنوات عديدة، لكنها ستظل شامخة على الرغم من كل ما حدث وما سيحدث، فبمقتل الطاغية الفاسد المتجبر ينتهي عهد حارة الحفرة لتصبح ربوة مزدانة بخضرتها ونضارتها وبهائها "وحين أشرقت شمس الصباح كان الجميع يشاركون في عيد حارة الربوة.. وكانت الجازية تصغي لموال ذياب

يا سيدة الضياء، والأرض والسماء، يا سيدتي، يا شذا الحبق ولون الكستناء، وروح الروح وسر الماء، داياتهم خسئوا، وانبجس الضياء، تيهي على عرش قلبي، وازرعيه خصيا ونماء..."[37]

[37]– عز الدين جلاوجي: راس المحنة،/ 267/266.

خاتمة:

انصبت هذه الدراسة على ثلاث روايات جزائرية تم فيها استلهام التراث الشعبي ممثلا في استحضار الجازية الهلالية بشموخها وجمالها وبطولتها، وقد تم الاستفادة من هذا التوظيف الذي كان مثمرا من خلال إعادة بعث هذا التراث وجعله يعبر عن راهننا بكل تناقضاته، عن الواقع الجزائري بكل تقلباته.. ومن النتائج التي يمكن الوقوف عندها ما يلي:

1- إمكانية توظيف التراث الشعبي في الرواية حتى وإن كان مجهول المؤلف ومنتميا للذاكرة الجماعية، فإن مشاركته في الرواية واندماجه فيها يسهم بشكل لافت في التعبير عن شواغلها.

2- لم يكن حضور الجازية في تلك الأعمال حضورا شاحبا باهتا، بل جاءت محورا تدور حوله الأحداث والشخصيات والأماكن التي تظافرت كلها للإفصاح عن ذلك.

3- لم يكن ذلك التوظيف على سبيل التكرار أو التزيين... بل تم استثمار التراث الشعبي لتقديم وجهة نظر جديدة تخدم الموقف الذي جاءت فيه.

4- حضرت الجازية في الروايات السابقة بطرق متقاربة أحيانا ومختلفة أحيانا أخرى، حيث نلفي أن الجازية في الجازية والدراويش تمثل الأسطورة، كما تمثل الكمال والجمال، ثم أنها أصبحت قيمة أو مجموعة قيم تصب في موضوع واحد هو الوطن، أما في رواية نوار اللوز تحضر الجازية باعتبارها حلما أو طيفا ثم أن حضورها له طقوس خاصة حيث يتشقق الحائط وتتجلى لصالح الزوفري الذي يحاورها وتحاوره، لكنها أيضا في حضورها الاستذكاري جاءت على أنها بارعة الجمال، حتى والروائي يعيد ذكر سيرتها إلا أنها حضرت كي يذكرنا بالتضحية والنضال والإيثار في الزمن الماضي الذي غادر ولم يبق منه إلا الأحاديث والروايات، أما في رواية راس المحنة فإن الجازية جاءت بمثابة المخلص، إنها المرأة التي ضحت بنفسها لأجل حارة الحفرة كي تصبح ربوة، كي تخلص كل المقهورين من امحمد املمد وأشباهه، وما الفتنة التي غرق فيه المجتمع الجزائري فترة التسعينات ما هو إلا وجه من وجوه الفتنة التي حدثت بين قبائل بني هلال بعد استقرارهم بلاد الغرب.

المصادر والمراجع:

1-علي حرب: أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1994.

2-سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي (من أجل وعي جديد بالتراث)، المركز الثقافي العربي، ط1، آب أغسطس، 1992

3-مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر (دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2000.

4- عبد الحميد بن هدوقة: الجازية والدراويش، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، دت.

5- محمد المرزوقي: الجازية الهلالية، قصة من التراث الشعبي، الدار التونسية للنشر، دط، 1983.

6-وفاء علي سليم: الأم بين الملاحم والسير (دراسة مقارنة)، وكالة المطبوعات عبد الله حرمي، الكويت ط1، 1982.

7-الطاهر روابنية: الفضاء الروائي في الجازية والدراويش، المساءلة، مجلة اتحاد الكتاب الجزائريين، ع1، ربيع1991.

8-عبد الحميد بورايو: منطق السرد، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، 1994.

9-عبد الحميد يونس: الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، دار المعرفة، ط2، القاهرة، 1968.

10-واسيني الأعرج: نوار اللوز (تغريبة صالح بن عامر الزوفري)، دار الحداثة، ط1، 1983.

11-روزلين ليلى قريش: مفهرسة سيرة بني هلال الكبرى، ج2 التغريبة، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 2010.

12-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2000.